استشهاد مرقس بالعهد القديم

أ. د. جوزف بو رعد الانطوني
عميد كلية العلوم اللاهوتية في الجامعة الأنطونية
وأستاذ مادة الكتاب المقدس فيها وفي جامعة الروح القدس، الكسليك

تمهيد

تشكّل العلاقة بين العهدَين القديم والجديد موضوعًا متشعبًا وغنيًا في آنٍ واحد. تكمن صعوبة الموضوع في أن العهد القديم يمثّل بالنسبة إلى اللذين كتبوا العهد الجديد، "الكتاب المقدس"، أي الكتاب الذي يحتوي على الأسس التي يقوم عليها إيمانهم بالله، تمامًا كما هي الحال مع الأناجيل بالنسبة إلى المسيحيين اليوم. فالعهد القديم، والحال هذه، كان يمثّل المعطى الحضاري الأهم في تكوينهم الديني، بل والحضاري؛ فهم فُطروا على التقاليد الكتابية التي أضحت جزءًا لا يتجزأ من لغتهم ومن تعبيرهم. لذلك نفهم ميل الإنجيليين منهم إلى استعمال الكثير من العبارات المأخوذة من هذه الكتب في تدوينهم لسيرة يسوع وتعاليمه على أنه المسيح المنتظر، سواء ذكروا ذلك بطريقة واضحة أم لا. فالعلاقة، والحال هذه، تتخطى بكثير حدود المقاطع التي يَقتبس فيها الإنجيليون بوضوح كتب العهد القديم والتي يصدّرونها بتعابير تشير إلى ذلك. أكثر من ذلك، يمتد تأثير العهد القديم حتى إلى أبعد من الاقتباسات والإشارات واللغة بشكل عام، ليطال أحيانًا المنطق الذي يتّبعوه في تنظيم المشاهد والأحاديث، ضمن الحبكة الإنجيلية العامة.

مع تشعب هذه التأثيرات وتعدد مستوياتها لا بد لنا أن نقرّ بأن الإحاطة بموضوع علاقة أي من الاناجيل بكتب العهد القديم، ليست بالأمر السهل،

وهي في كل الاحوال نسبية. بناءً على ذلك، نقدّم في ما يلي محاولةً لإلقاء بعض الضوء على علاقة إنجيل مرقس بالكتب المقدسة، منطلقين من دراسة مقتضبة للاقتباسات، ومنتقلين إلى معالجة بعضٍ من الإشارات الأخرى إلى الكتب المقدسة التي يتضمنها هذا الإنجيل.

من الملاحظ أن إنجيل مرقس يتضمن القليل من الاقتباسات المباشرة والواضحة، نسبةً إلى الأناجيل الأخرى، وفي مقدمتها إنجيل متّى. هذا لا يعني أنه لا يعود كثيرًا إلى الكتب المقدسة، ولكنه يقوم بذلك من خلال الإشارة إلى أحداث أو إلى مشاهد معينة، باستعماله تعابير أو كلمات، أو حتى بذكره لمواقع محددة مرتبطة بمواقفِ مماثلة في العهد القديم. فالاقتباسات لا تعدو كونها وجهًا واحدًا ليس إلا من أوجه التقارب بينِ سيرة يسوع والتقاليد الكتابية.

نقسم مداخلتنا هذه إلى قسمين رئيسيين. في القسم الأول، سنعالج الاقتباسات التي ترد في إنجيل مرقس بشكل عام، ونتوقف، لاحقًا، على ما يميز هذا الإنجيلي عن بقية الإزائيين، وتحديدًا متّى الذي استعمل هذا الأسلوب بكثافة في معرض ربط إنجيله بالعهد القديم. في القسم الثاني، سندرس ما يسمّى "بالإشارات"، متوقفين بشكل خاص عند بعض النصوص التي يظهر فيها هذا الربط كمفتاحٍ أساسيٍ لفهمها وفهم دورها في الهيكلية العامة للإنجيل.

١. الاقتباسات

أميّز، بداية بين الاقتباسات المباشرة والاقتباسات غير المباشرة. تضم المجموعة الأولى المقاطع التي يصدّرها الكاتب بعبارات تمهيدية للنص الكتابي، يبيّن من خلالها، وبشكل واضح، للقارئ، عزمَه إستحضار نصٍ أو فقرةٍ معينةٍ من الكتب المقدسة. أما المجموعة الثانية فتضم تلك الآيات التي يقتبس فيها الكاتب نصًا من العهد قديم من دون أن يذكر ذلك بوضوح. يصعب تحديد هذه الأخيرة إذ ليس من السهل الاتفاق على مقياسٍ موحّدٍ يفصل بين التلميح إلى فكرة أو إلى وصف معين، وبين الاقتباس المباشر لنص باستحضار عباراته.

في الحد الأقصى، يمكن إحصاء حوالى أربعةٍ وعشرين اقتباسًا في إنجيل مرقس[١]. أما في الحد الأدنى، فيمكن أن نذكر عشرة اقتباسات، بحسب عدد المصنّفين في خانة الاقتباسات المباشرة التي يتضمنها الكتاب. وكما أوردنا سابقًا، نجد في هذه المقاطع العشرة عبارات تسبق هذه الاقتباسات، بعضٌ منها يبقى على مستوى العام، أي من دون ذكرٍ للكتاب الذي يُقتبس منه أو لكاتبه، من مثل: "ألم يُكتب" (١٧/١١)؛ "أَوَما قَرأتُم هذِه الآية (أو الكتابة)" (١٠/١٢–١١)؛ "لأنه كُتب" (٢٧/١٤)[٢]. البعض الآخر يذكر اسم الكاتب: "أحسن أشعيا في نبوءته" (٦/٧)؛ " قالَ موسى" (١٠/٧)؛ " موسى كَتَبَ علَينا" (١٩/١٢)؛ "داود نفسُه قال" (٣٥/١٢). أخيرًا مرتين اسم الكتاب: "جاء في سِفرِ النَّبِيِّ أَشَعيا" (٢/١) و "جاء في كِتابِ مُوسى" (٢٦/١٢).

بالنظر الى الاقتباسات بشكل عام، نجد أن العدد الأكبر منها يَرِد على لسان يسوع، أي ما يعادل تسعة عشر اقتباسًا من أصلِ ثلاثة وعشرين. يُظهر هذا التفصيل يسوع مترسّخًا في التقليد الأصيل المبني على التوراة (أو كتب موسى، كما يسمّيها الإنجيلي) وعلى تعاليم الأنبياء وعلى أقوال داود (أي المزامير). إنه يؤكد أيضًا على صواب تعاليمهِ ومواقفهِ وتناغُمِها معَ تعاليمِ الآباء، بالمقارنة مع خصومه الذين يستشهدون مرةً واحدة فقط بالكتب المقدسة. في هذه الحالة أيضًا، والتي ترد في مر ١٨/١٢–٢٧ في نقاش مع الصدوقيين حول صحةِ القولِ بقيامة الموتى، يُظهرُ مرقس يسوعَ على أنه صاحبَ الكلمةِ الأخيرةِ والذي يَكشِفُ ضلالَ خصومِهِ.

---

(١) يحصي نستلة–آلاند خمسة وعشرين اقتباسًا بأحجام متفاوتة، حذفنا منها مر ١١/٩ لعدم اقتناعنا بتصنيفه. نشير إلى أن المحللين لا يتفقون في تصنيف الاقتباسات نظرًا لعدم اتفاقهم على مقياس موحّد للتصنيف، كما ذكرنا أعلاه.

(٢) في ٢١/١٤ يؤكد يسوع أن "ابن الإنسان ماضٍ كما كتب في شأنه"، دون أي ذكر لمضمون هذه الكتابة.

أما بالنظر إلى مصادر هذه الاقتباسات، فنجدُ أنها تُقسم إلى قِسمين: التوراة والأنبياء (ضمنًا مزامير داود). بشكل عام، ترد الاقتباسات من التوراة في سياقٍ جدلي أو تعليمي حيث يُقدِّم يسوع كشارحٍ لها ومصوِّب. أما أقوال الأنبياء فهي تتحقق إما بتصرفاته(٣)، كاشفةً عن هُويته، وإمّا بتصرفاتِ الآخرين (التلاميذ، الشعب أو خصومه). نلفت أخيرًا إلى أن مرقس يُظهر انحيازًا واضحًا إلى أقوال النبي أشعيا الذي يستشهد به أقله ست مرات(٤).

٢. فرادة مرقس

يتميّز مرقس بخلوّه من "جملة الاقتباس" (formula quotations) المستعملة وبكثافة في إنجيل متّى (كان هذا/حدث ذلك ليتم ما قال الرب على لسان النبي...)، وبعدم استعماله لأقوال العهد القديم كبراهين تدعم صحة ما يعلن هو أو ما يروي. يتميز أيضًا باعتمادِهِ على طريقةٍ أُخرى للتعاملِ مع الكتب المقدسة والقائمة على تعاقب الإعلان–التحقيق (prediction-fulfilment) تمامًا كما هي الحال في مر ١/٢. لا تنحصر هذه التقنية أو الإستراتيجية فقط باقتباسه العهد القديم، بل وفي تكوين الإنجيل نفسِه (إعلان يسوع عن موته في ٨/٣١؛ ٩/٣١، الخ)(٥).

بذلك لا يمنح الاقتباسات استقلالية تخرجها من حبكة إنجيله العامة، بل إنه يدرجها بطريقة سلسةٍ ضمن السياق السردي، ويخضعها للمنطق نفسه الذي يحكم ترابط الأقسام في إنجيله. نورد مثالاً على ذلك إعلانَ يسوع لتلاميذه في مر ١٤/٢٧: "ستَعثُرونَ بِأجمَعِكم، لأنَّه كُتِبَ: "سَأَضرِبُ الرّاعي فَتَتَبَدَّدُ

(٣) أنظر مر ١١/١٧: أش ٥٦/٧ ؛ مر ١٢/١٠–١١: مز ١١٨/٢٢–٢٣.
(٤) مر ١/٢–٣؛ ٤/١٢؛ ٧/٦–٧؛ ٩/٤٩؛ ١١/١٧. أضف إلى هذه استخدامه لاستعارة الكرمة (أش ٥) في حديثه عن الشعب في مر ١٢/١.
(٥) فوستر ١٩٩٩ : ١٥٧.

الخِراف"، ولكِن، بَعدَ قِيامَتي، أَتَقَدَّمُكُم إِلى الجَليل". فالجملة المقتبسة من النبي زكريا (١٣/٧)، الواردة ضمن خطاب مباشر ليسوع، مندمجة كليًا ضمن هذا "القول النبوي"، الذي يستبق ما سيكون عليه التلاميذ بعد موت يسوع، وستتحقق في مر ١٦/٧–٨. فالاقتباسات إذن في مرقس تندرج ضمن السياق العام للنص وهي تتحقق ضمن حدود النص، على عكس ما نلاحظ في متّى حيث أن الكتب المقدسة تتحقق في شخص يسوع وفي كل عمل من أعماله. بتعبير آخر، إن أحد أهم أهداف الإنجيلي متّى هو التأكيد على أن النبوءات المسيحية تحققت في يسوع الناصري، بينما بالنسبة إلى مرقس، فالنبوءات تساعد على فهم شخصية يسوع ورسالته وتدخل بذلك ضمن الهدف العام للإنجيل، ألا وهو إظهارُ الخلاصِ الذي تمّ في يسوعَ المسيح (الإوَنْجِلْيُون).

إن الانتباه إلى موقع الاقتباسات في الجمل التي ترد فيها يؤكد هذا المنحى، إذ أن العديد منها، وبالأخص تلك الطويلة نسبيًا، تقع في منتصف الجملة كما رأينا ذلك في مر ١٤/٢٧ (الوارد أعلاه)(٦).

٣. الإشارات

نسمّي "إشارات" تلك الحالات التي يذكر فيها الكاتب او يلمّح، عَرَضًا، إلى حادثةٍ أو إلى شخصيةٍ ما من العهد القديم. تارةً يَذكر الإنجيلي بوضوح اسم هذه الشخصية (إيليا في الحديث عن يوحنا المعمدان؛ موسى وإيليا في مشهد التجلي)، أو يشير مباشرةً إلى حادثة ما من حياةِ إحدى الشخصيات (من حياة داود في مر ٢/٢٥–٢٨ = ١صم ٢١/٢–٧)، وغالبًا ما يعدل عن ذلك. في هذه الحال يجوز التحدث عن "إشارات غير مباشرة". هذا النوع من الإشارات، وهو الأكثر شيوعًا في إنجيل مرقس، لا يثير انتباه القارئ العادي، و يَتَطلّبُ تحديدُهُ

(٦) أنظر أيضًا مر ١/١–٤؛ ٧/٦–٨؛ ١٠/٥–٨؛ ١٤/٢٧–٢٨.

التدقيقَ في التعابير، والجهدَ لاستعراض مشاهد مماثلة من الكتب المقدسة. هذا لا يعني أبدًا أن اكتشاف هذا الترابط يبقى أمرًا ثانويًا او إضافيًا، بحيث أنه يمكن تجاهله، بل العكس هو الصحيح. ففي بعض الأحيان يشكل هذا الاكتشاف أمرًا ضروريًا لفهم الكثير من تفاصيل النص التي بدونه تبقى مبهمة. نورد على سبيل المثال استحضار مرقس لقصة النبي يونان في حادثة تسكين العاصفة في مر ٤/٣٥-٤١.

أ. مر ٤/٣٥-٤١(٧)

لا يتضمن هذا المقطع أي ذكر للنبي يونان، ولكن الإطار العام (السفينة في البحر– نلفت، عَرَضًا، أن مرقس يتفرد بتسمية بحيرة طبريا بحرًا) والعديد من التفاصيل تؤكد هذا التوازي في ذهن الكاتب(٨). فيسوع، على مثال النبي الهارب من وجه الرب والمتوجه إلى ترشيش، يَصعد على متن سفينة؛ ينام (الفعل نفسُه καθεύδω)؛ تهبّ ريحٌ شديدة، والأمواج تهدد السفينة بالغرق؛ رَئيسُ البَحَّارَةِ يدنو من يونان ويقول لَه: "ما بالُكَ مُستَغرِقاً في النَّوم؟ قُمْ فادعُ إلى إلهِكَ لعَلَّ اللهَ يُفَكِّرُ فينا فلا نَهلِك"، بينما التلاميذ يوقظون المسيح ويقولون له: "يا معلم، أما تبالي أننا نهلك؟!". كل هذا التقاطع في القصتين يشير بوضوح إلى استناد مرقس على قصة يونان، كما وردت في الفصل الأول من كتابه، ليروي عبورَ يسوع "إلى الشاطئ الآخر من البحر (أي بحيرة طبريا)، إلى ناحية الجراسيين" (مر ٥/١)، والذي تخلّلَهُ تسكينٌ للعاصفة. يؤكد هذا التوازي على معنى هذا العبورِ ورمزيتِهِ، إذ إنه يمهّد لرسالة يسوع بين الوثنيين، كما يتفق على ذلك المحلّلون. إن هذا الاستحضار لمغامرة يونان المتفلّت من الرسالة التي انتدبه لها الله إلى نينوى

(٧) اشكر الاب د. دافيد نويهوس على أفكاره الخلاقة، هو الذي أوحى لي الكثير مما سأورد في هذا المقطع وفي المقطع التالي.

(٨) انظر لغاس ١٩٩٦ : ٣١٠-٣١١.

الوثنية، يوضح لنا لماذا خرج يسوع وحدَهُ من السفينة، ولماذا رفض طلبَ الممسوسِ المعافى أن ينضمَّ إلى التلاميذ ويَصعدَ معه إلى السفينة.

والحال فإن تردّدَ يونان في التوجّهِ إلى الوثنيين لا يوازي تردّدَ يسوع الذي يطلُبُ بنفسِهِ من التلاميذ التوجّهَ إلى ناحية الجراسيين، "لنعبر إلى الشاطئ المقابل" (آ ٣٥)، ولكن تردُّدَ الرسل في التوجه إلى الأمم. تَظهَر أولى علاماتِ هذا التردّد هنا، وهو لن ينحسر إلا خلال معجزة تكثيرِ الخبزِ والسمك الثانية في ٨/١-٩، التي صنعها يسوع في أرض وثنية (الأولى تحققت بين اليهود)، والتي تقاسَمَ فيها التلاميذ الخبزَ مع الجموعِ الوثنية. إن هذا التوازي في الآيات التي يحققها يسوع بين اليهود وبين الوثنين لا ينطبقُ فقط على حادثةِ تكثيرِ الخبز، بل وعلى آياتٍ أخرى يُروى عَنها بين الفصلين الرابع والثامن (شفاءُ ابنةِ يائيروس ٥/٢١-٤٣ الذي يقابلُهُ شفاءُ ابنةِ المرأةِ الفينيقية في نواحي صور ٧/٢٤-٣٠).

ب . مر ٦/٣١-٣٤

يقال الأمر نفسه في مر ٦/٣١-٣٤، حيث يصف الإنجيلي تصرف يسوع، الذي أخذته الشفقة على الناس المتهافتين إليه، والذين كانوا كخرافٍ لا راعي لها، بعبارات تستحضر مشهد اختيار يشوع بن نون ووضعِ يدِ موسى عليه في عد ٢٧/١٥-١٨. في هذا النص يَظهَرُ يشوع بن نون كرجلٍ فيه روح (آ ١٨)، اصطفاه موسى "لِئَلاَّ تَبْقى جَماعةُ الرَّبّ كَغَنَمٍ لا راعيَ لَها". بذلك يُقدَّم يسوع على أنه يشوع الجديد إذ تجمعهما، بالإضافة إلى الاسم (اللفظة نفسها في اليونانية)، رسالةُ قيادة الشعب إلى بَرّ الأمان وطرد الأعداء من أمام الشعب (يسوع يطرد الشياطين ويشوع يطرد الكنعانيين).

بالعودة دائمًا إلى شخصيات العهد القديم التي يشير إليها الإنجيلي بطريقة غير مباشرة ، نذكر أن الأردن التي يبدأ يسوعُ من على ضفافه رسالتَه، هو مكانٌ محوري بالنسبة إلى يشوع وإلى إيليا. كلاهما عبراه: يشوع ليدخل إلى أرض

الميعاد وإيليا ليدخل إلى السماء. زد على ذلك، أن وصفَ طريقةِ عيشِ يوحنا الذي "كانَ يَلبَسُ وَبرَ الإبِلِ، وزُنّارًا مِن جِلْدٍ حَولَ وَسطِه. وكانَ يَأكُلُ الجَرادَ والعَسلَ البَرّيّ"، يؤكدُ على الشبه بين هذا الأخير وبين إيليا (٢مل ١/٨)، كما ويشير إلى الإطار العام لحادثة تعرّف رسل الملك أحَزيا على النبي إيليا في ٢مل ١.

خاتمة

أختُمُ مداخلتي هذه بالتشديد على ثلاث نقاط :

١. إن الإنجيلي مرقس، شأنُه شأنَ الإنجيليين الآخرين، استخدم، وبتواتر، العهد القديم ليضفيَ مصداقية على الأحداث التي أحاطت بحياة يسوع بعمله وتعليمه، أي بإنجيله ككل، الامر الذي يفاجىء الكثيرين اليوم. فبالنسبة إلينا اليوم، إن سلطة وقيمة العهد القديم كقانون وككلمة الله هي التي تحتاج إلى إثبات وليس العكس. والحال، فإننا نرى أن الإنجيليين، باستشهادهم بالعهد القديم، يضفون سلطة شكّ، ويشك فيها الكثير من المؤمنين بيسوع منذ القرون الأولى للمسيحية(٩).

٢. بالرغم من قلة عدد الاقتباسات المباشرة في إنجيل مرقس، فإن هذا الإنجيلي يعود باستمرار إلى الكتب المقدسة في روايته لسيرة يسوعَ الخلاصية. هذه العودة تقوم قبل كل شيء على استعمال تعابيرٍ وألفاظٍ تُرسي أوجه شبهٍ بين يسوعَ وشخصياتٍ كتابيةٍ متعددة. فيسوعُ هو آدم الجديد من حيث أنه يدعوه ابنَ الله (١/١)، كما ويصوّرُهُ يُقاومُ تَجاربَ الشريرِ، ويعيشُ بأمانٍ مع الحيواناتِ البرية، ويَنعمُ بالعونِ الإلهي (١/١٢-١٣). إنه يشوع بن نون الجديد الذي يُشفِقُ على الشعب التائه "كخرافٍ لا راعي لها"، ويقودُهُ فيعبُرَ معَهُ نهرَ الأردنِ، ويُدخِلهُ أرضِ الميعاد، ويَطرد أعداءَهُ من أمامه. عبورُهُ البحرَ الذي يَفصِلُ اليهودَ

(٩) أنظر زول ١٩٦٥: ١٦٩.

عن الأمم يذكّر برسالةِ يونانَ بين أهلِ نينوى، ونجاحُهُ في جعلِ تلاميذِهِ يخدمونَ وثنيين يذكّرُ بخلاصِ نينوى على يد هذا النبي.

٣. يستقي مرقس من التقليدِ الكتابي ما يَنفَعُ هدفَهُ الأول والأخير، عَنيتُ بهِ روايةَ سيرةِ يسوعَ بما يوحي أنه هو المسيحُ المخلّصُ المنتظر. إنطلاقًا من وجهة النظرِ هذه، يُقدّمُ الإنجيليُّ قراءةً جديدةً للنصوصِ المذكورةِ، قراءةً غير معنيةٍ باحترامِ إطارِ هذه النصوص وسياقِها الأصلي، الموقف الذي تلتَزِمُهُ بدقةٍ العلوم الكتابية الحديثة. إنه بذلك يَتبنّى ممارسةً معروفةً في العهد القديم، حيثُ أن الكُتّابَ المُلهمين يُقدِمونَ باستمرارٍ على تأويل كتاباتِ أسلافهم(١٠). من ناحيةٍ أخرى، إن الاطلاعُ على أدبِ ما بين العهدينِ، بما يتضمن من كتابات يهودية، أورثوذكسيةً كانت أم هامشية، يؤكدُ أن الإنجيليين، عامةً، ومنهم مرقس، في موقفهم هذا، كانوا أبناء عصرهم، بكل ما للكلمة من معنى.

المراجع

LEGASSE S., *L'évangile de Marc*, vol. 1, Paris 1996. لغاس

SUHL A., *Die Funktion der alttestamentlichen Zitate und Anspielungen im Markusevangelium*, Gütersloh 1965. زول

von RAD G., *Old Testament Theology*, vol. 2, 1965. فون راد

VORSTER S.W., *Speaking of Jesus.* Essays on Biblical Language, Gospel Narrative and the Historical Jesus, SNT 92, Leiden 1999. فوستر

(١٠) فون راد ١٩٦٥: ٣٨٤.